قضية الانتحال عند المستشرقين

د. عبد الرحمن عبد الحميد علي حسن

حلقـــــه

(1)

أحسن علماء العرب فى عرض قضية الانتحال ، بفهمهـــم الواضح وخبرتهم الدقيقة ، وعلمهم الغزير .

وجاء المستشرقون ، وأخذوا هذه الآراء ، ونظروا اليها فى تعصب محض ، ثم فسروها حسب أهوائهم ، وما درجوا عليـــه من الطعن فى الاسلام والمسلمين .

ونزلوا الى الميدان الادبى بهذا الحقد الذى سد عليهم مسالك الافق ، فلم يستطيعوا له دفعا ، مما ظهر فى تناولهم لكثير مـــن القضايا التى تمس العقيدة الاسلامية والدين الاسلامى ، ولـــم يسلم الجانب الادبى من هذا الاتجاه ، بل ظهر فيه كثير مـــــن الخلط والتزييف على أيدى كبار المستشرقين ، وأكبر شاهد على ما ذكرناه قضية الانتحال التى نتناولها الآن .

ويعتبر «نولدكه» أول مستشرق بذر بذور الشك في الشعر الجاهلي ، وذلك في سنة (1864 م) ، ثم جـــاء بعده (أهلوارد) فوافق على كل ما ذهب اليه «نولدكه» ، بل زاد عليه في توسيع دائرة الشك ، ودفعها الى من جاء بعده مثل (بروكلمان)،(ليال) (باسيه) ، (وموير) .

ومجمل ما ذهب اليه (اهلوارد) يتلخص في الآتي :

الشك في الكثير من النصوص الجاهلية .

أن هناك حالات قليلة يمكن فيها تميز الشعر الصحيح مـــن المنحول ، ولكن الشك يدوم فيما يعود الى ترتيب الابيات وشكل كل واحد منها ، وأما بقية الآثار فان الشك فيها محتوم لا مناص منـــه (1) .

ويستشهد على دعواه بما في دواوين الفحول الستة مـــن الاضطرابات والخلط وكثرة الروايات .

ووقف هذا الموقف ، وسار في نفس الاتجاه (كليمان هوار) سنة 1904 م ، حيث ألـــقى ظلال شكـــه عـــلى كثير من النصوص الجاهلية ونظر اليها بالشك والارتياب الكثير .

وجاء بعد هذا « مرجليوث » المستشرق الانجليزى الذى ألف كتابا عن الشعر الجاهلي نشره في سنة 1925 بعنوان (منشـــأ الشعر العربي) ، وقد ألح (مرجليوث) في كتابه على الطعن والتجريح للشعر العربي والقرآن الكريم .

فهو يذهب الى أن العرب في الزمن القديم لم يعرفوا التدوين الكتابي للآثار الشعرية التي وصلت الينا عن طريق الرواية ،

---

(1) تاريخ الادب العربي ، بلاشير ، ص 177 .

ولم تدون الا ابتداء من منتصف القرن الثاني للهجرة ؛ منتصف القرن الثامن للميلاد (2) .

ويقول : على أن هذه الآثار الشعرية التي وصلت الينا مشكوك فيها لما كان يفعله خلف الاحمر ، وحماد الراوية ، وأن الروايات مضطربة في الشعر الجاهلي ، ولم يحفظ منه الا ذكريات ضعيفة هزيلة .

ويتساءل : أليس عجبا ألا تلوح المسيحية في خلال هذا الشعر الا قليلا ؟ وكيف يبدو لنا هؤلاء الشعراء القدامى ؟

انهم يبدون كجماعة يدينون بالتوحيد وهم على علم تام بالدين الاسلامي وقصص القرآن ! حتى اذا رأيناهم يتكلمون كالمسلمين ويتصرفون تصرف الوحدانيين المتزمتين ، صعب علينا عندئذ التسليم بصحة الآثار المنسوبة اليهم .

ويشك أيضا في لغة الشعر، ويقول عنها ان الشعر جاء بلغة واحدة ، وليس فيه صدى للغة عرب الجنوب ، واذا تعمقنا في دراسة هذا الشعر وجدنا أنه يرد الى الماضي أشياء وأمورا عرفت في العصر الاسلامي . ويصل الى ذروة شكه حين يقول :

ان هذه المجموعات من الاعتبارات تقودنا الى طرح السؤال الآتي :

اذا لم يعتبر الشعر الجاهلي من الداخل والخارج سابقا لظهور النبي محمد (ص) أفيصح التسليم بوجود كمية من الشعر أضيفت اليها أشعار منتحلة ؟ أم يجدر بنا على العكس رفض هذا الشعر كله لانه وضع بعد الاسلام .

(2) تاريخ الادب العربي ، ص 178 .

ويقول عن القرآن : ان القرآن لا يحتوى على أية اشارة الى الموسيقا العربية ، ان أول ذكر لها ورد (سنة 65) للهجرة (684م) فهل نستنتج أن العرب كانوا يجهلون الموسيقا قبل هذا التاريخ ؟ وكل ما نستطيع استنتاجه هو أن العرب كغيرهم من الامم انتقلوا من الرقص الى الموسيقا ثم الى الشعر ، وأن القرآن الذى يحتوى بالقوة الاوزان الشعرية يدلنا على التوسع الموحـــد للشعـــر والموسيقا ، فيكون قد حصل انعكاس لظاهـــرة جاهلية هى فى الحقيقة ظاهرة اسلامية .

ويفرق بـين عرب الجنوب والشمال معلنا أن الشعر العربى متأثر بالقرآن وما فيه من أساليب . ثم قال : ان الشعر الذى سبق العصر الاموى مشكوك فيه ، والدليل على ذلك أن الممالك التى تركزت فى جزيرة العرب قبل الاسلام عرفت حضارة راقيــة ، ولكن النقوش المعاصرة لهذه الممالك وبخاصة اليمنية منها لا تدل على وجود أى نشاط شعرى . فكيف نرى والحالة هذه بدوا أقل رقيا من الممالك المذكورة ، ينظمون شعرا ، يعدل فى رقيه تلك الآثار الجاهلية ؟

وفى النتيجة فان الشعر يفرض تدخل عنصر حاسم لم يــكن موجودا قبل ظهور النبى محمد (ص) ألا وهو القرآن .

ويقرر أن ما أثار شكــه ــ أيضا ــ هــو وجود بعض الفاظ اسلامية محضة مبثوثة فى الشعر الجاهلى ، خاصة فى معلقة زهير ففيها كلمات مثــل : الحســاب ، والثواب ، والكتــاب وغــيره ، ويستشهد بهذين البيتين ليدل على شكه وهما من معلقة زهير .

فــلا تكتمــن اللـــه مــا فــى نفـوســكم
ليخـــفى ومهــما يكـــتم اللـــه يعـــلم

يــؤخــر فيــوضع فى كتـــاب فيـــدخــر
ليــــوم الحســاب أو يعجـــل فينتقــم (3)

ثم يقول عنهما : كل هذا يذكرنا بالقرآن : الفكرة والاسلوب وحتى المفردات (4) . تلك هى النظريات التى ساقها (مرجليوث) فى كتابه والتى حاول من خلالها الطعن فى الشعر الجاهلى ، وأنه وجـد فى صورة مظلمة لا تمت للعصر الجاهلى الا بخيط رفيــع ضعيف .

ومن الجدير بالذكر أن طه حسين ســار وراء هذه النظريات والآراء ، وطبقها حرفيا فى كتابــه الشعر الجاهلى سنــة 1926 م مدعيا أنها من ابتكاراته مع أنها كلها مقتبسة من (مرجليوث) . حتى لقد ذهب بعضهم الى أن الدكتور (طــه حسين) أغار عــلى نظرية الشك فى الشعر الجاهلى ، ولــم يفترق عن مرجليوث الا فى تسليمه بأن هناك شعرا جاهليا ، فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التى استند اليها (مرجليوث) ، وجعل يقول لك : انــنى شككت فى الشعر الجاهــلى ، ويداعبك بقوله : ألححت فى الشك أو قل ألح على الشك ؛ والحديث فى صدق وأمانة خــير من هذه المداعبة (5) . وقال ناقد آخر : « لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعــوى جديدة ، ينسبها لنفســه ، وتنتسب فى الحقيقــة لمرجليوث (6) .

وقــد تعرضت آراء (مرجليوث) لنقــد عنيف من المستشرق (برونليخ) الذى عاب على (مرجليوث) قوله : ان الشعر يتبــع

(3) شرح القصائد العشر ، ص 116 .
(4) تاريخ الادب العربى ، ص 178 .
(5) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ، ص 17 ـ 18 .
(6) مصادر الشعر الجاهلى ، ص 411 .

الحضارة . قال : ان توسع الشعر لا يتبع الحضارة كأن نرى مثلا بعض الاقوام الابتدائيين كالاسكيمو ، أو سكان جزر سالمون لا علاقة للشعر عندهم بالحالة الاجتماعية أو الثقافية ، وعليه فان عدم وجود الشعر في النقوش الحميرية يؤيد فقط نقص الروابط بين الحضارة الجنوبية ونوع الحياة البدوية في الشمال ثم هل من اللازم أن نعيد للاذهان بأن للجنوب لغة مستقلة عن لهجات الشمال أى أنه عديم الاثر فيها ، فمن الواجب ألا نعير كبير قيمة للنوادر الدالة على فقدان الوجدان العلمي عند الرواة فاذا كان ثمة أخطاء في معطياتهم فهى ناشئة من طرائقهم السقيمة لا عن قلة أمانتهم . ويجب أن نكون حذريين تجاه التصحيحات التى أجريت للنصوص تحت تأثيرات اسلامية .

ومن السخف أخيرا الزعم بأن القرآن وبخاصة (سورة الشعراء) قد سببت فعالية الوضاعين الذين وجدوا في النصوص القرآنية المستشهد بها حكما مبرما على الشعر الوثنى الذى افتنوا في وضعه ، وبعد ..

فهذه نظرات المستشرق (برونليخ) وهى تدلنا في وضوح على مدى خروج (مرجليوث) ومغالاته في كل ما ذهب اليه ، وأنه بدلا من أن يعترف بحقيقة الواقع وهى واضحة راح يتخبط في الظلام بدون دليل أو برهان مبين .

تشارلس جيمس ليال :

من المستشرقين الذين تناولوا قضية الانتحال وأحاطوها بالدراسة والتحليل وحسن العرض وقوة البيان (تشارلس جيمس ليال) . وقد تتبع (ليال) ما قاله (مرجليوث) وفند آراءه محاولا الخروج بالقضية الى مظهرها الواضح المعقول بدلا من الظلام الذى صبه عليها (مرجليوث) من مختلف الجهات .

وقد بدأ (ليال) القول عـن صحة «الشعر الجاهلي» بأن ذكـر طعن المفضل في صحة ما يرويه (حماد) وذلك حين قال :

قد سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح أبدا ... الخ

يقول (ليال) في نقدة لهذا الخبر لو أننا قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقا وسلمنا بذلك ، فلابد لنا أن نذكر أن (حمادا) كان معاصرا (للمفضل) ، وأنه ربما كان أصغر منه سنـا ، وأن (المفضل) كان مـن أعلم الناس بالشعر وأقدرهم عـلى تميـز صحيحه من منحوله ، وأن الرواة من العرب كانوا ، من قبل أن يفسد (حماد) روايتهم ، قادرين عـلى أن يفتحوا خزائن الشعر الذي يحفظونه ويروونه بين يدى (المفضل) ، ولـو أننا سلمنا بصحة ما ذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل ، فان ذلك ينتهى الى أن ما زاده (حماد) كان يشبه لغـة الشاعر الحقيقى الاصيل واحساسه وعاطفته شبها يستحيل معه التميز بينه وبين شعـر الشاعر الاصيل ...

فـاذا كان ذلك كذلك فكيف أمكـن أن يعرف أنها موضوعة منحولة ؟ اذا لم يكن ثمة من يعرف القصيدة في صورتها الاولى من غـير ما أضيف اليها من زيادات موضوعة ؟ ومن يكون ذلك العالم سوى المفضل نفسه (7) .

ويذكر (ليال) مثلا آخر عن الاصفهانى يـدل عـلى تناقض ما يقال عـن (حماد) فالاصفهانى يذكر أن جماعة مـن الرواة كانوا عند (المهدى) بعيساباذ ومعهم (حماد) ، (المفضل) اذ خرج حاجب الخليفة فقال للناس : يا معشر من حضر من أهل العلم ،

---

(7) مصادر الشعر الجاهلى ، ص 269 .

ان أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حمادا بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفا لصدقه وصحة روايته فمن آراد أن يسمع شعرا جيدا محدثا : فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . ويعلق (ليال) على هذا الخبر فيقول : انه يشك كل الشك في أن (حمادا) قد عاش حتى سنة 158 هـ وهي السنة التي ولد فيها (المهدى) ، لان (ابن خلكان) يذكر أن وفاة (حماد) كانت سنة 155 هـ ، وابن النديم في الفهرست يقول أن وفاته كانت في سنة 156 ، وفضلا عن ذلك فان البيتين اللذين يقال أنهما أضيفا الى قصيدة (زهير) ليس فيهما الا وصف عادى ، وفي المجموعات القديمة مئات من القصائد تبدأ بما يشبهها ، والقيمة الوحيدة لذكر أسماء المواضع في هذين البيتين هي أنهما يدلان على أن الشاعر ينتمي الى الموطن الذى توجد فيه هذه المواضع .

فاذا لم يكن عملا جليلا أن يزاد على قصيدة لزهير أبيات قليلة وضعت مكان النسيب الناقص ، ولا ريب أن ذلك لا يدل على مهارة خارقة في الوضع والنحل ..

ثم يقول (ليال) عن خلف الاحمر ، حماد « من الخطأ أن نعد هذين الرجلين النموذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار القبائل ، فقد كان كلاهما من أصل فارسي ، أما رواة القبائل فكانوا من العرب ، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التي تحفظ شعرهم وتخلده في صدور القبيلة والامة العربية بعامة وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجامعون في القرنين الاول والثاني الهجريين من شعر » (8) .

(8) راجع القصة في الاغاني . ط دار الكتب بمصر ، ج 6 ص 188 .

ثم ينقد مذهب (مرجليوث) فيقول : ان ما ذهب اليه (مرجليوث) من أن الشعر القديم موضوع منحول فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها لانه اعتمد على القصص التى تروى عن (حماد) ، (خلف) وهى فى الحقيقة لا تمثل الواقع فى شىء وقد بينا رأينا فيها فيما سبق ..

ويزيد موقفه وضوحا فيقول :

ان حمادا وخلفا كانا يحاكيان أسلوبا للنظم كان قد قرر واتخذ صورته النهائية زمنا طويلا قبل الاسلام ، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنين أو غير مسلمين ، فى زمن (محمد) ثم أسلموا ، وقد كثر استخدامه وسجل بالكتابة لعهد شعراء القرن الاول الهجرى ، مثل جرير ، الفرزدق ، الاخطل ، ذى الرمة فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع ، ولا يمكن أن تعترضنا فى دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل لان رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التى تلقى عليهم لنشرها وتخليدها ..

أما الشعر الجاهلى فربما حاكاه حماد وخلف ، ولكن هذه الحقيقة نفسها « المحاكاة » تدل على وجود أصل يحاكى .. أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكية ، وانه لم يبق شىء من الاصل نفسه ، فذلك أمر لا يقره الفهم السليم على ضوء هذه الظروف (9) .

ولا يكتفى (ليال) بهذا بل يصور القضية بصورة أكثر وضوحا وأقوى تعليلا فيذهب الى أن النحل موجود فى شعر أكثر الامم فهو ظاهرة شائعة ثم قال : لو أننا رجعنا الى القصائد نفسها وتأملناها مليا لتبين لنا أنها تحتوى على مذاهب شعرائها ،

---

(9) مصادر الشعر الجاهلى ، ص 271 .

فهي تدل عليهم مــن جهة ، ومن جهــة أخرى أن شعراء العصر الاسلامي لابد أنهم اعتمدوا في شعرهم على أصل يأخذون عنه .

ثم هناك أمر أخير .. ألا وهو هذه الالفاظ العزيزة المتينــة والصور البدوية الجافة الموجودة في الشعر ، وكل هذا يبرز لنا أصالة الشعر الجاهلي وأنه موجود رغم ما ذهب اليه (مرجليوث) .

ويقول (ليــال) : مــن الطبيعي أن يفترض المــرء أن هــذه القصائد اعتراها بعض التغيير في أثناء التناقل : فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها ، وقد يؤدي عدم تثبت الذاكرة الى اسقاط أبيات ، أو تغيير في ترتيبها أو وضع عبارات الراوي بدل العبارات التي نسيها ، ومثل هذه الظواهر شائعة في كــل مــــكان .

غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجــد فيها من الشخصية ما يكفينا للاستدلال على أن القصائد في معظمها من نظم الشعراء المنسوبة اليهم . فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة ، وتعرض لنــا سبع شخصيات متميز بعضها عن بعض كــل التميز ، ونجد الامــر نفسه في القصائد الثلاث الباقية (للاعشى والنابغة وعبيد) التي عــدها بعض النقاد مــن المعلقات . فقــد تركت شخصية امرىء القيس وزهــير ولبيــد والنابغة والاعشى طابعها على شعرهم ثــم يقول : ومــن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة في عصر متأخر ، صنعها علماء عاشوا في ظروف مغايرة تمام المغايرة ، وفي حيــاة شديدة الاختلاف عــن حيــاة الاعراب في الصحراء العــربية .

والامر الثاني الذي يقولــه (ليال) عن وجود الشعــر الجاهلي وأنه غير منحول :

هو أن شعر القرن الاول الهجرى يتضمن وجـود هذا الشعر الجاهلى ويفترض سبقه عليه ، فقد استمر شعراء القرن الاول ، مثل جرير ، الفرزدق والاخطل وغيرهم يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين ، فقـد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مـرات متكررة ، متناولين الموضوعات نفسها والاسلوب نفسه ، محسنين ومحورين ومقتبسين ، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها .

والسبب الثالث الذى يذكره (ليال) للدلالة على وجود الشعر الجاهلى : هو أن الشعر القديم مـلىء بألفاظ كانت غريبة عـلى العلماء الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد . فقد كانت تنتمى الى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم ، وكانت غير مستعملة فى الزمن الذى كتبت فيه القصائد وجمعت الدواوين ، ولابد من أن يتنبه كل من اتصل بالشروح القديمة وعرفها الى أن الشراح الذين يختلفون فيما بينهـم اختلافا كبـيرا الى شرح الصعوبات بمقابلة عبـارة بأخرى ، وبالجـدل والنقـاش ، لا بالرجوع الى لغـة الخطاب التى لم تعـد تحوى الالفاظ التى يبحثون عن معناها ، وتعتمد المعاجم كـل الاعتماد عـلى الشعر القديم وعلى القرآن الكريم والحديث ، وتفترض صحة الشعـر كما تسلم بصحة القرآن والحديث ..

ومجمل ما قاله (ليال) يتضح فى الآتى ..

ان الشعر الجاهلى موجود لا محالـة مهما اشتـط (مرجليوث) ومهما أشاع حوله من شكوك .

ان الشعر الاسلامى سار على النمط الذى سار عليه الشعـر الجاهلى ، وأمامنا صور كثيرة لهذا الشعر تدلنا فى صراحة وصدق عـلى متانة أسلوبه ، وقـوة ألفاظه ، فهو قطعة من البادية التى أحـرجته .

ان الانتحال موجود فى شعر الامم كلها فلماذا التجنى على العرب والحط من شعرهم وتراثهم بدعوى أنه مفقود منحول ؟

وبعد ...

فهذه شهادة مستشرق من المستشرقين استطاع أن يحق الحق ويعلنه في صراحة بدون خفاء مظهرا أصالة الشعر العربى ووجوده في القديم ، وهو بهذا يخالف كل المخالفة ما ذهب اليه (مرجليوث) ... وفى حلقة أخرى ان شاء الله سنعرض لهذه القضية عند علماء العرب فى القديم والحديث ...

